رأى فى تحديد العصر الجاهلى

للأستاذ إبراهيم مصطفى ، عضو المجمع (*)

يرجع أدبنا فى أصوله الى العصر الجاهلى — ألفاظ لغتنا ، وطرق اشتقاقها ، وبناء الجملة ونظم تأليفها ، وأوزان الشعر وقوافيه وهيكل القصيدة .

ومثل البادية فى العصر الجاهلى وصور الحياة فيها لم تزل منبثة فى تفكيرنا وإيماننا ونظم حياتنا وكل تنوير لهذه الحقبة من التاريخ يرجع بالإضاءة والكشف على أصول أدبنا وتكوين حياتنا .

وهو عصر غامض حتى لا نعرف مداه ولا نقف على تحديده ولهذا ترسل الحوادث فيه مبعثرة مضطربة غير مرتبطة بأوقاتها ويغشيها ستار من الخيال ومن المبالغة تتيه فيه الحوادث ويضل المؤرخون .

فحرب « داحس والغبراء » مثلا وهى من أشهر حوادث هذا العصر يعدها بعض المؤرخين فى أوائل القرن الخامس ويراها آخرون من حوادث القرن السادس ومنهم من يقول إنها امتدت أربعين سنة ومنهم من يرى حصرها فى عشر هذا الزمن أى نحو أربع سنوات .

وزهير بن جناب الكلبى عاش ٣٠٠ سنة أو ٤٠٠ سنة أو ٤٥٠ سنة وطى بن أد عاش ٥٠٠ سنة .

(*) ألقى هذا البحث فى الجلسة التاسعة للمؤتمر (١٧ من يناير ١٩٥١) .

وتحديد هذا العصر بمعالم من التاريخ أول واجب لتصوره ولفهم مجرى حوادثه .

وآخر هذا العصر معروف محدد هو سنة ٦٢٢ وهو بدء التاريخ الهجرى .

وإذا نظرنا وجدناه لا يؤرخ بزوغ الدعوة الإسلامية وبدء ظهورها فقد دعا الرسول الى دينه سرا وجهرا وأعلن رسالته فى الأسواق وهى مجامع العرب وعرض نفسه على القبائل وتم ذلك كله قبل الهجرة ولم يعد شىء منه نهاية للعصر الجاهلى .

وكذلك لا يؤرخ انتشار الاسلام وغلبته على الجزيرة العربية فقد كان الاسلام فى المدينة وحدها بل فى جزء منها وسلطان الحياة الجاهلية لم يزل مبسوطا فى الجزيرة وأرجائها الواسعة . والمسلمون أقلية صغيرة ضئيلة كما كانوا أقلية بمكة .

ولكن أمير المؤمنين عمر والعرب معه لم يتخذوا هذا التاريخ اعتباطا ولا حددوه تحكما بل رأوه تاريخ تكوين حكومة خضعت لها البلاد العربية وشملها سلطانها ونظامها وقضت على حالة من الفوضى تنتهب فيها الأموال والأنفس . والضعيف نهب القوى .

ولم يتخذ تاريخا حتى كان سلطان تلك الحكومة وطيدا شاملا وأمنها مظلا وارفا .

وكان تكوين الحكومة عقب تلك الرحلة

القاسية السعيدة الفاصلة وهى الهجرة فسمى التاريخ بالهجرى .

فهذه نهاية العصر الجاهلى قرنت بالهجرة وبتكوين الحكومة الإسلامية .

فما مبدأ هذا العصر ؟ يرجع المؤرخون به الى أول الخليقة ويجعلونه شاملا لكل ما كان قبل الإسلام وهم بهذا يقررون أن العرب أو عرب الشمال على الأخص قد جاءهم الإسلام وهم على حالة بدائية لم يتصلوا قبلها بحضارة .

ونحن مضطرون هنا أن نشير إلى نوعين من الجاهلية . جاهلية فطرة وتكون الأمة فيها بدائية متبربرة خشنة العيش لم ترث آثار مدنية سابقة . وجاهلية فترة وهى حال أمة كانت لها حضارة فقدتها بسلطان من الطبيعة أو أحداث السياسة وتدهورت فى حياتها درجات وبقى مستكنا فيها آثار ما تمتعت به من حضارة .

وإذا كان مسلك المؤرخين يفيد أن جاهلية العرب هذه كانت جاهلية فطرة فان كل شىء فى التاريخ وفى حياة العرب يشهد أنها كانت جاهلية فترة ؛ جاهلية موقوتة تحمل آثارا قوية من حضارة أو حضارات سابقة .
لغتهم وبيانهم لم تكن لغة أمة بدائية ولا قريبة من البدائية .

وعملهم وهـو التجارة — والتجارة الخارجية خاصة — بعيد أشـد البعد من عمل أمة بدائية وحكمهم للبلاد يوم فتحوها وسياستهم أهلها لا يمكن أن يتهيأ لأمة فطرية .

حتى رذائل الجاهلية ، فيها مايشهد ببعدها عن الحياة البدائية : هذا الربا الذى شدد الإسلام فى النهى عنه والذى عنى به الرسول فى خطبة الوداع ووضعه عن الناس ، يشهد تعدد أنواعه والتشدد فى تحريمه بتغلغله فى الحياة الجاهلية . وما كان تقويم المال وتقديره وأرباحه عملا من أعمال الأمم الفطرية .

وربا الفضل نوع من الاتجار فى الأثمان وفى النقد وعمل من أعمال «البورصة» ومضارباتها وهو من أمراض حضارة غنية مرفهة فقد كان نقد الفرس بأيدى العرب يعلو ويهبط تبعا لانتصارهم أو هزيمتهم وكذلك نقد الروم فتضطرب الثروة فى أيدى الناس وينتهز الفرصة البصيرون النهازون كما يفعل اليوم تجار النقد . وقد عالجه الإسلام أصلح علاج : الذهب بالذهب والفضة بالفضة مثلا بمثل يدا بيد .

والقرآن يشهد للعرب بحضارات سالفة بائدة : فهم على دين أبيهم ابراهيم ، وأرسل الى العرب رسل منهم هود وصالح وشعيب ولكل دين رسالته وفى كل دين حضارة .

وطبيعة البلاد العربية وموقعها فى وسط الدنيا تأبى أن تكون بمنأى عن الحضارات وأن يعمرها قوم منعزلون فطريون فمنذ أقدم عصور التاريخ كانت الجزيرة العربية وبواديها قناة التجارة بين الشرق والغرب من قبل أن تقد قناة السويس بل إن طبيعة الجزيرة اليوم تعمل فى قوة وسرعة لتسترد قناة التجارة إلى مسالك بواديها . ولا يغفل عن

ذلك الا من سد أذنه وأغمض عينيه فالسيارات القوية العاتية الوثيرة المريحة تصل ما بين البصرة وبيروت فى يومين وللسرعة حسابها فى التجارات وفى هذه الأيام خاصة . وقناة السويس تنظر بخضوع وحسرة — إن لم تكن غافلة — إلى هذا المنافس الذى يحاول أن يسترد من بين يديها الثروة والغنى والمجد . والصحارى كالبحار تكون عازلة حتى إذا مهدت وذللت كانت سبيل القرب وهمزة الوصل . والذين اجتازوا البوادى العربية ورأوا طبيعتها الحجرية لا الرملية دهشوا لهذه الفجاج التى مهدتها الطبيعة وسوتها يد الله . وقد شهدت عشرات من الرجال مهدوا بأيديهم أميالا من الطرق لتمر بها سيارات الملك ابن السعود وسيارات جنده وكل ما عملوا أنهم كنسوها صغار الحجارة التى تسمى عندهم « بالحراجل » .

والمنقبون لا يزالون يكشفون عن آثار حضارات عظيمة فى اليمن وشمال الحجاز وبطرة وتدمر والحيرة فهل يقبل أن تقوم هذه الحضارات فى نواحى الجزيرة وإخوانهم فى جوفها بدائيون غير متحضرين؟.

والآثار تشهد أن تلك الحضارات كانت تجارية، من التجارة ثروتها وربحها وعليها قيامها وبقاؤها . والتجارات تأتى من طرف الجزيرة إلى طرف آخر وتمر فى مسالكها ولابد لهذه المسالك من الاطمئنان والأمن ولايكون ذلك إلا فى ظل حضارة وسلطان قوى .

هذه حقائق تمليها الطبيعة وتنطق بها الآثار ولكن روايات الأخبار التى بأيدينا تغطى هذا أو تطمسه لأن رواياتها دونت بعد صدر من الإسلام وعمل فى تدوينها العرب وغير العرب .

أما العرب فقد كان لدى أغلبهم أن الإسلام لا يظهر فضله حتى تكبر سيئات الجاهلية وحتى لا يكون فى الجاهلية إلا شر قلبه الإسلام خيرا .

والإسلام رسالة ووحى ولكن الذين استجابوا له وقاموا به هم رجال ربوا فى ظل الجاهلية ولا بد أن تكون مواهبهم وتجاربهم قد أعدتهم لقبوله أو النهوض به والله أعلم حيث يجعل رسالته .

وأما غير العرب فقد حز فى قلوبهم ضياع دينهم ودولهم ، ولم يستطيعوا عيب العرب إلا أن ينالوا من جاهليتهم . وجهاد الشعوبية فى هذا كبير ووسائله شتى ظاهرة وماكرة .

فلا ينكر متبصر أن الجزيرة العربية شهدت قبل الإسلام حضارات ذات شأن . وعلى هذا الأصل نحاول أن نحدد أول الجاهلية العربية قبل الإسلام ، وسبيل ذلك أن نعرف آخر حضارة قامت بالجزيرة ونحدد نهايتها فتكون بدء هذا العصر الجاهلى .

فاذا اقتصرنا على العصر التاريخى وعلى ما كشف من آثار حضاراته ذكرنا حضارة الأنباط وقد كانت فى شمال الجزيرة وامتدت من العراق إلى مصر ووصلت فى الجنوب إلى القرى وأبقت آثاراً خالدة وصمدت للروم فى

حروب شديدة مريرة . ثم حان حينها فانقضى أمرها على يد « تراجان » سنة ١٠٦ من الميلاد وورثت مكانتها تدمر ووسع سلطانها الشام ومصر وما بين النهرين والأناضول إلى أنقرة وجاء يومها فانقضى ملكها سنة ٢٧١ على يد أرليان الرومانى أيضاً .

وكانت الحروب الطويلة القاسية بين الروم والفرس سبب انقطاع التجارة بينهما وكان لابد للتجارة أن تشق لها مجرى إذا سد مجرى فاتخذت سبيلها فى مفاوز البلاد العربية البعيدة عن سلطان الدولتين . وكان الروم أشد حسرة لانصراف التجارة إلى أيدى العرب ولا بد لها من هذه التجارة ولا بد للغرب أن ينال مواده وقوته من البلاد الشرقية المشمسة الممطرة الغزيرة الإنتاج . فكان من عناصر سياسة الرومان وتصميمهم أن يصلوا إلى كنوز الهند وأن تكون تجارتها خالصة لسلطانهم .

ولهذا تجشموا الأهوال فى القضاء على بطرة وعلى تدمر وحاولوا القضاء على دولة اليمن أيضاً وأرسل «أغسطس» حملته المشهورة بقيادة قائده العظيم «إلياس جلاس» فهلك فى الصحراء جيشه وعاد بخيبة سجلها رفيقه وصديقه «استرابون» وأورثتهم يأساً أبدياً من أن ينالوا بلاد اليمن عن طريق شمال الجزيرة .

وفى القرن الرابع كانت المسيحية قد انتشرت وصالحتها الدولة الرومية البيزنطية واستعانت بها على مد سلطانها . وكان رسل هذه الديانة قد وصلوا إلى الحبشة وبشروا فيها بدينهم فقامت بها دولة مسيحية حبشية تقابل فى البلاد العربية دولة اليمن اليهودية وقامت العداوة بين الأختين فأحباش هذه الدولة من أصل عربى يمنى ولكن المنافسة فى التجارة والعداوة فى الدين أججت نار الحرب بينهما . ومن آثار تلك العداوة حديث الأخدود والنار ذات الوقود . وأرسلت بيزنطة رسلها وسفنها إلى الأحباش فمكنتهم من القضاء على الدولة الحميرية باليمن بعد حرب سجال وانتهى بذلك عهد آخر دولة مستقلة قامت قبل الإسلام فى الجزيرة العربية وكان ذلك سنة ٥٢٥ ميلادية ..

ولا نذكر التجاء اليمن إلى الفرس أعداء الروم ولا استعاذتهم لنصيب من حكم بلادهم ولا سعى الفرس لبسط سلطانها عليهم وإنما نذكر أن بلاد العرب خلت من دولة تحكمها وتؤمن سبلها وتحمى تجارتها ووقعت فى فوضى نرى بعض صورها فى شعر كشعر الحارث بن حلزة إذ يقول :

هل علمتم أيام يُنتهب النا
س غِوارا لكل حى عُواءُ
لا يقيم العزيز بالبلد السهـ
ل ولا ينفع الذليل النجاء
ليس ينجى موائلا من حذار
رأس طود وحرة رجلاء

فهذا عندنا حد العصر الجاهلى العربى وتلك سماته التى أوحت إلى الشاعر القديم أن يقول :

لايصلح الناس فوضى لاسراة لهم
ولاسراة إذا جهالهم سادوا

وإذا نظرنا إلى الجزيرة العربية فى هذا القرن وجدنا آثار المعسكرات اليمنية ومعاقلها مبعثرة فى أنحاء الجزيرة .

بنو الحارث بن كعب فى جنوب الحجاز وكانوا يلقبونهم ملوكا . والأوس والخزرج فى شماله، وفى نجد طى وكلب وملوك كندة . وفى عمان الأزد، وفى تخوم العراق المناذرة، وفى مشارف الشام الغساسنة . وكلهم ينتسبون إلى اليمن وقد نشبت الحروب بينهم كل يريد الملك لنفسه كما فعل قواد الإسكندر فى ملكه الواسع من بعده وثار العرب من غير اليمن وهم العدنانيون وتطلعوا إلى الاستقلال والنفوذ بالسلطان واشتعلت الحرب بين العدنانيين واليمنيين وبين العدنانيين والعدنانيين ، ونهض كل مغامر طموح ، وطمعت كل قبيلة ذات قوة أن تستبد بالسلطان، وغلبت عليهم حمية العداوة والثأر ومضى شعراؤهم يتغنـــون بفظائع الحرب .

وحليل غانية تركت مجـــدلا
تمكو فريصته كشدق الأعلم
فشككت بالرمح الأصم جنانه
ليس الكريم على القنا بمحرم
فتركته جزر السباع ينشنه
يقضمن حسن بنانه والمعصم

* * *

كأن جماجم الأبطال فيهـــا
وُسوق بالأماعز يرتمينـــا
نجز رؤوسهم فى غير بر
فما يدرون ماذا يتقـــونا

ولكن حياة العرب ــ كما قدمنا ــ تعتمد على التجارة ورزقهم منها ولا بد لهم أن يتجروا ليعيشوا . والأثر الوارد: تسعة أعشار الرزق من التجارة . والرسول كان منذ الصبا تاجراً ، وأبوه وعمه وجده تجار وزوجته خديجة ترسل فى التجارة أموالها وبسبب من التجارة كان زواجها . وأبو بكر وعمر وعثمان تجار وما شئت من وجوه الصحابة وأشراف العرب كانوا يعملون فى التجارة .

واللغة نفسها تحمل أثر التجارة وغلبتها على أعمالهم فالإيمان تجارة لن تبور وتجارة تنجيكم من عذاب أليم والله اشترى من المؤمنـــين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . والمؤمنون لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وعهد الخلافة بيعة .

فلا بد لهم من التجارة ليعيشوا ويرتزقوا ولا مناص لهم من الحرب ليثأروا ويتسلطوا وهنا عظمت شعائر الأشهر الأربعة الحرم

وشاعت البيوت المحرمة الآمنة وكان أمجدها بيت قريش بمكة وحرم الله الذى امتن به القرآن على قريش « أو لم يروا أنا جعلنـــا حرماً آمنا ويتخطف الناس من حولهم » .

وبدت عادة التحالف وتضام بعض القبائل إلى بعض والحرص على العهد والوفاء بالعقد .

واذكروا حلف ذى المجاز وما
قدم فيه ــ العهود والكفلاء

حذر الطيخ والتعـــدى وهل
ينقض ما فى المهرق الأهـــواء

وبدت نغمة التحذير من الحرب والثناء على السلم وتمجيد مساعيه .

يميناً لنعم السيدان وجدتمـــا
على كل حال من سحيل ومبرم

تداركتما عبساً وذبيـــان بعد ما
تفانوا ودقوا بينهم عطـــر منشم

وقد قلتما أن ندرك السلم واسعاً
بمال ومعروف من القول نسلم

فأصبحتما منها على خير موطن
بعيدين فيها من عقوق ومأثم

* * *

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم
وما هو عنها بالحديث المرجم

متى تبعثوهـــا تبعثوها ذميمة
وتضر إذا ضريتموهـــا فتضرم

والشعر لزهير فى معلقته . وولداه كعب وبجير قد لقيا المصطفى وآمنا به .

فهذا تحديد العصر الجاهلى وتلك ملامحه ومعالم حوادثه . يبتدئ بفقد حكومة البلاد وضياع أمنها واضطراب نظامها فى سنة ٥٢٥ وينتهى بقيام الحكومة التى تقر السلام وتنشر الأمن فى سنة ٦٢٢ .

وما بينهما عصر الجاهلية والفوضى والتناحر على السلطان .

ومنذ بدا لى هذا الرأى جعلت أختبره فيما أقرأ من أخبار فأرى حوادث الجاهلية تمضى فى حدوده منسجمة منسقة متضامة يوضح بعضها بعضا .

وأجد من الشواهد فى تواريخ الأمم المجاورة ما يؤيده .

فالغساسنة كانوا يتاخمون الروم فى الشام قبيل الاســلام ولهم مع الدولة البيزنطية صلات مدونة نرى أنهـا مرت بحالتين صلة الجار الذى يسالم ويحارب وصلة التابع الذى يستمد ولايته الشرعية من غيره .

وللمستشرق العظيم «نلدكه» بحث فى تاريخ أمراء غسان كتبه وهو شاب لينال به الدكتوراه ثم رجع إليه بالتحقيق بعد النضج وبعد ما ظهرت مستندات من تأليف المعاصرين ومن السجلات الرسمية فى الكنائس وغيرها — وقرر أن أقدم اتصال للغساسنة ببيزنطة اتصال التابع كان فى زمن الحارث الأكبر من سنة ٥٢٩ الى سنة ٥٦٩ إذ أنعموا عليـه ثم على ولده من بعده بلقب بطرق وهو لقب حكام الأقاليم عندهم؛ وتفسير ذلك أن الغساسنة وهم يمنيون كانوا يستمدون سلطانهم من دولتهم اليمنية ويجاورون الروم مجاورة الجار قد يسالم وقد يحارب، فلما زالت دولة اليمن وجاءتهم الحرب من حيث كانوا يلتمسون العون اضطروا الى الاستعانة بالروم واستمداد السلطان منهم ونعلم أن العربى لا يقبل هذا الا بعد القهر والقسر .

وفى تخوم العراق كان المنـــاذرة ملوك الحيرة وكان لهم اتصال بملوك الفرس من آل ساسان .

ونقرأ من أخبارهم أن « يزد جرد » أرسل ولده « بهرام » ليتربى فى بلاط المنذر بالحيرة .

وأن « يزد جرد » لما مات ثار الفرس رافضين أن يتولى أحد من أولاده لما كانوا يكرهون من حكمه وأن بهرام استعان بالمنذر وولده النعمان فى جيش قدروه بثلاثين ألفا وبهم تمكن من الجلوس على عرش أبيه ولا أرى فى هذا صورة التابع الخاضع وقد كان ذلك سنة ٤٢٠ .

ولكن فى زمن كسرى أنو شروان نرى المنذر الثالث يتولى السلطان من يد كسرى وحكم كسرى من سنة ٥٣١ الى سنة ٥٧٨ والمنذر قتل فى واقعة محددة التاريخ سنة ٥٥٤ واستمر الأمر على ذلك يولى الفرس حاكم الحيرة من المناذرة ، وربما ولوه من غيرهم كما ولوا عليها إياس بن قبيصة الطائى

فهذه أسرة يمنية أخرى تبدلت طبيعة اتصالها بجارتها بعد أن سقطت دولة اليمن سنة ٥٢٥ .

وفى داخل الجزيرة كان امرؤ القيس آخر ملوك كندة وحاربه المنذر الثالث وحارب أسرته نزاعا على الملك وقتل كثيراً من أمراء كندة ويبكيهم امرؤ القيس فيقول :

ملوك من بنى حجر بن عمـرو
يسـاقون العشـية يقتلـونا

فلو فى يوم معركة أصيبوا
ولكن فى ديار بنى مرينـا

فلم تغسل جماجمهم بغسل
ولكن فى الدمـاء مرملينـا

تظل الطير عاكفة عليهـم
وتنتزع الحواجب والعيونـا

وإذا كان المنذر يستند إلى سلطان الفرس فان سبيل أمرىء القيس أن يستعين بمنافسيهم الذين ينازعونهم الرغبة فى التسلط على البلاد العربية وهم الروم ويقصد فى ذلك الى الحارث بن جبلة والحارث كما علمنا ولى من سنة ٥٢٩ الى سنة ٥٦٩ .

وهكذا نرى ان ما نكشف من تاريخ الحوادث يؤيد ما بدا لنا من التحديد .

فاذا أقررتم تحديد العصر الجاهلىّ على هذا الوجه فتحتم الباب لدرسه دراسة قويمة وكان ما بأيدينا من الشعر المروى مددا كافيا لتنوير هذا العصر وتوضيحه .

فاذا أخذنا قبيلة واحدة مثل قبيلة بكر وهى أخت تغلب وكلتاهما من وائل — ووائل فرع من فروع ربيعة .

إذا أخذنا هذه القبيلة وجدنا أنا نروى لأكثر من خمسين شاعرا من شعرائها بينهم نحو عشرين يمكن أن يكون شعر الواحد منهم ديوانا وخمسة لهم دواوين باقية مطبوعة متداولة بأيدينا وهم :

عمرو بن قميئة وطرفة بن العبد والخرنق أخته والمتلمس والأعشى .

وهو قدر كفيل أن يهدينا الى معرفة واضحة لأحوال تلك القبيلة .

فاذا درست على هذا النمط كل قبيلة وتضامت أخبار القبائل ووضح بعضها بعضا أمكن أن يكون بأيدينا تاريخ لهذا العصر أوضح وأصح وأثبت من هذه الروايات المبعثرة المشوبة بكثير من الخيال والمبالغة .